اسم الدرس : تفسير سورة العنكبوت (4) | الآيات [16 : 25]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

❖ المقدمة:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم. نستكمل بإذن الله سبحانه وتعالى مجالس سورة العنكبوت، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من أهل القرآن، وأن يرزقنا حفظ كتابه والعمل به، وأن يرزقنا أن نتخلّق بأخلاق القرآن. عودة مرة أخرى إلى مجالس القرآن، هذه المجالس التي نسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبلها منّا وأن يجعلها خالصة لوجهه، هذه المجالس التي أخبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم (أنها تَحُفها الملائكة وتغشاها الرحمة ويذكرها الله سبحانه وتعالى فيمن عنده)[1].

هذا المجلس الرابع لسورة العنكبوت، كنا توقفنا عند قول الله سبحانه وتعالى بعد ما انتيهنا من قصة نوح عليه السلام في هذه السورة، بدأت الآيات بعد ذلك مباشرة بذكر قصة إبراهيم. قال ربنا سبحانه وتعالى ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ* إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[العنكبوت 16-١٧]، هنا بدأت الآيات بقصة أخرى بعد قصة نوح عليه السلام.

❖ استحضار جو السورة:

مهم أن الإنسان يستحضر جو السورة الذي تكلمنا عنه، أنها نزلت في أواخر العهد المكي، وفيه:

- زيادة في البلاءات التي تنزل على ضعفاء المؤمنين.

- والعذاب يزداد.

---

[1] [عن أبي هريرة]: مَن نَفَّسَ عن مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِن كُرَبِ الدُّنْيا، نَفَّسَ اللَّهُ عنْه كُرْبَةً مِن كُرَبِ يومِ القِيامَةِ، وَمَن يَسَّرَ على مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عليه في الدُّنْيا والآخِرَةِ، وَمَن سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ في الدُّنْيا والآخِرَةِ، واللَّهُ في عَوْنِ العَبْدِ ما كانَ العَبْدُ في عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَن سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فيه عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ له به طَرِيقًا إلى الجَنَّةِ، وما اجْتَمع قَوْمٌ في بَيْتٍ مِن بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتابَ اللهِ، وَيَتَدارَسُونَهُ بيْنَهُمْ، إلَّا نَزَلَتْ عليهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ المَلائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَن عِنْدَهُ، وَمَن بَطَّأَ به عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ به نَسَبُهُ. غيرَ أنَّ حَدِيثَ أَبِي أُسامَةَ ليسَ فيه ذِكْرُ التَّيْسِيرِ على المُعْسِرِ.

مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٦٩٩ • [صحيح] •

- القوة والناصر يقل -موت عم النبي صلى الله عليه وسلم أبو طالب، وموت خديجة رضي الله عنها-.

- الكل يتكالب على الضعفاء المؤمنين.

- وليس هناك بارقة أمل في الأفق.

هذا ملخص لأواخر العهد المكي. نزلت السورة لتُأَصّل قضايا معينة في الطريق إلى الله سبحانه وتعالى في مسائل الابتلاء والصبر والمجاهدة، فقال ربنا سبحانه وتعالى في أول السورة ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾[العنكبوت ٦] وفي آخر السورة ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾[العنكبوت ٦٩]. وبينت السورة في المنتصف بعد ذكر قصص الأنبياء أن كل جهود أهل الباطل لهدم الدين مهما بدت في ظاهرها قوية ولكنها كخُيوط العنكبوت؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو القوي العزيز سبحانه وتعالى، هذا استحضار لجو السورة

لما تكلمّنا في قصة نوح عليه السلام ذكرنا أن القصص القرآني: كل قصة حين تأتي في سورة معينة يكون لها دلالة معينة، أتذكرون حين قلنا في قول الله سبحانه وتعالى ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ [العنكبوت ١٤]، قلنا أن قصة نوح عليه السلام في هذه السورة لها دلالتان مهمتان:

- الأولى: قصة نوح عمومًا، في أننا نستحضر جهد سيدنا نوح عليه السلام عمومًا في هذه السورة.

- ثانيًا: أن هناك التقاط معين لمشهد معين من القصة، فلم تُذكر القصة كلها.

كما قلنا مثلًا أن مشهد قصة سيدنا إبراهيم الذي جاء في سورة الأنعام لم يأتِ إلا في الأنعام، وأن قصة سيدنا موسى التي جاءت مع الخضر في الكهف لم تأتِ إلا في الكهف، فأحيانًا يخص الله سبحانه وتعالى بعض السور القرآنية ببعض المشاهد من القصص القرآني بالرغم من أن القصة في حد ذاتها تتكرر، لكن هنا كان هناك مشهد معين يتم التركيز عليه، لماذا؟ ذكرنا أن هذا يتناسب مع جو السورة.

حين ننظر إلى قصة سيدنا نوح نجد أن التركيز ليس على كلام نوح عليه السلام، بخلاف قصة سيدنا نوح في سورة نوح، -بفضل الله شرحنا سورة نوح عليه السلام-، كان هناك تفصيل لكلام سيدنا نوح. لكن هنا التركيز لم يكن على كلام نوح ولا على الوسائل التي استعملها في الدعوة والتنوع الذي استعمله وهذا ذكر بالتفصيل في سورة نوح، لكن هنا كان التركيز على مدة مُكثه بينهم وصبره عليهم، لذلك

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ﴾ وليس فقال ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾، فكان التركيز على قصة نوح عليه السلام لدلالة معينة.

❖ دعوة سيدنا إبراهيم:

لكن قصة إبراهيم هنا بدأت القصة بـ ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ﴾[العنكبوت ١٦]، فالتركيز هنا على وضوح دعوة إبراهيم عليه السلام، وأنها في قمة الوضوح وحُجَّة بينة، وسنرى كيف أن إبراهيم عليه السلام أقام قُصُورًا من البراهين على الدين الحق وعلى أن ما يدعو إليه هو الحق، وهَدَم قصور الباطل بالحُجّة، وكيف أنهم عجزوا أمام هذه الحُجَج ولم يملكوا لأنفسهم شيئًا أمام هذه الحُجَج، فكأن أيضًا هذه القصة تشير إلى دلالة أن الإعراض لا يعني بالضرورة قصور الحجة.

ذكرنا أن في آخر العهد المكي الأتباع لا يزيدون، يوجد إعراض، يوجد استمرار للتكذيب، فكان من الممكن أن يقع في صدر أحدهم في آخر المرحلة المكية أن ربما نحن حُجَتنا ليست قوية، أو ربما يكون القرآن غير كافي، أو قد نبحث عن آيات أخرى، أو ربما هم يحتاجون مُعجزات حسية. فيبدأ الإنسان يفكر في حلول أخرى غير القرآن ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام ٣٥]، أحيانًا الإنسان يبحث في نفق الأرض وسُلَّم السماء ويترك الآيات التي أعطاها الله سبحانه وتعالى له.

فجاءت هذه القصة –وغيرها من الدلالات كما سنذكر بإذن الله سبحانه وتعالى– لتُبيّن أن الإعراض لم يكن بسبب قصور الحُجة، حُجة إبراهيم عليه السلام كانت واضحة، وخاطبهم بخطاب مرتب منظم يتكلم في قضايا أساسية محورية، وبعد هذا كانت النتيجة أعرضوا عنه ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾[العنكبوت ٢٤] أي ليس عندهم أي إجابة على كل البراهين التي ذكرها إبراهيم عليه السلام. فهنا التركيز كان على قول إبراهيم كما كان التركيز في القصة السابقة على مُدة مُكث نوح عليه السلام بينهم.

❖ ترتيب أولويات الداعية:

﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ﴾[العنكبوت ١٦] أي: اذكر هذه اللحظة، لحظة قول إبراهيم، كما تذكّرت مدة مُكث نوح عليه السلام تذكّر هنا القول. ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ﴾ بدأ الدعوة بقمة الوضوح، وهذا مهم جدًا في سُلّم أولويات الدعوة.

* الداعية إلى الله سبحانه وتعالى لا بد أن تكون أولويات الدعوة عنده مرتبة حتى لا يُعَظّم الحقير ولا يُحَقّر العظيم. فأحيانًا نلتقط شيئًا مثلًا ويكون هذا الشيء من المباحات ليس بحرام ثم يُضَخّم ويُصَدَّر للناس على أن هذا هو المحور في الدين أو أن هذا المركز، ويوجد محاضرة بعنوان: "مركزيات الوحي". فالوحي له مركزيات، هناك أسس، وهناك أشياء تخدم هذه الأسس، كما قال ربنا سبحانه وتعالى ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[الذاريات ٥٦]، هناك أسس جاء الوحي ليبينها، جاء الوحي ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾[2] ليبين هذه الأسس التي يجب أن تستقر في قلب الإنسان.

فبداية دعوة إبراهيم في قمة الوضوح ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾[العنكبوت ١٦]، إنما جئتكم لا لأجل شيءٍ إلا مجرد أن تعبدوا الله وتتقوه، أي شيء آخر فهو تبعًا لذلك، أي إصلاح دنيوي آخر، أي تغيرات ستحدث هي تابعة لذلك، لكن الأصل إنما بعثني الله إليكم لا لقُصورٍ منكم في الدنيا ولكن لأنكم أشركتم بالله، أنكم ابتعدتم عن دين الله سبحانه وتعالى؛ فأرسلني الله سبحانه وتعالى لهذه المهمة الرئيسية.

مهم أن الإنسان يستحضر مَهمتَه، أنك تعرف ما هو دروك، وما هي وظيفتك الأساسية؛ لكي لا تنشغل بالفروع عن الأصول. مثلًا عندما نرى المهرجانات التي تُقام في أماكن إهلاك الظالمين والمفترض أن هذه الأماكن عندما يذهب إليها الإنسان يتذكر كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الله سبحانه وتعالى أهلك الظالمين في هذه الأماكن. فقال النبي صلى الله عليه وسلم (لا تمروا عليها إلا باكين)[3]، فعندما يتكلم أحدهم في هذه الأماكن ويتكلم عن أهمية السياحة في الأرض وأن الإنسان يستفيد من السفر وأن للسفر سبع فوائد –أو أيًّا كان عدد الفوائد–، هو يتكلم هنا في قضايا فرعية ويغفل الأصول.

---

[2] ذكرت هذه الآية في [البقرة ١٨٥]، [آل عمران ٤] و [الأنعام ٩١].

[3] [عن عبدالله بن عمر]: أَنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: لا تَدْخُلُوا على هَؤُلاءِ المُعَذَّبِينَ إلّا أنْ تَكُونُوا باكِينَ، فإنْ لَمْ تَكُونُوا باكِينَ فلا تَدْخُلُوا عليهم، لا يُصِيبُكُمْ ما أصابَهُمْ.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤٣٣ • [صحيح] •

توجد أصول هنا، هؤلاء أقوام كفروا بالله؛ فأنزل الله عليهم عذابًا، توجد هنا قضية محورية "قضية التوحيد والشرك"، فنأتي لهذا المكان ونتكلم عن هذه الفروع! هذا الكلام قد يكون في ذاته -بعيدًا عن السياق- صحيحًا، لكن الإشكال أنه يقال في هذا المكان، هذا قلب للأولويات التي ينبغي أن يقولها الداعية.

فقال إبراهيم عليه السلام بقمة الوضوح:

- أولًا **يبين الحق**، الحق الذي جئت به ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: ما أقوله لكم، ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم تعلمون صدق كلامي، أو لو قلنا أن تعلمون هنا فعل لازم فالمعنى: إن كنتم أهلًا للعلم أي: لو أنّكم تفهمون أو عندكم عقل وعندكم علم وكنتم من أهل العلم ومن أهل البصيرة ولستم من أهل الجهل والعَمَاية -كما يقول الزمخشري- فالمفترض أن تعرفوا أن الذي أقوله حق ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

- سنجد أن إبراهيم عليه السلام لم يكتف فقط بتبيين الحق ولكن قام أيضًا **بهدم الباطل**، هذه نقطة مهمة جدًا عند الداعية، أن أحيانًا طرح الحق فقط دون هدم الباطل قد ينشئ التباسًا بين الحق والباطل.. كيف؟ ما هي بداية عقيدتنا أصلًا؟ بداية شهادة التوحيد أن الإنسان يدخل في الإسلام، الشهادة عندنا ليست هي "الله إله" وهذا حق، لكن الشهادة عندنا: "لا إله إلا الله"، نَفي وإثبات، هدم للباطل لبناء قصر الحق، ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾[البقرة ٢٥٦]، **فمهم جدًا هدم الباطل وبناء الحق.**

فسيدنا إبراهيم تكلم عن الحق ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾[العنكبوت ١٦] فكان ممكن أن يكتفي بذلك، فيقولون له حسنًا سنعبد الله مع عبادة الأوثان، سنجمع بين الاثنين، ألست تريد منا أن نعبد الله؟! حسنًا سنعبد الله، لكن هو يُبيّن لهم أن من لوازم العبادة الحقّة لله هدم الباطل. وهذا كان المفترض أن يكون مفهومًا بدون أن أذكر الباطل، لكن ما دام الباطل منتشرًا الآن؛ لا بد أن أتكلم عنه.

❖ ضرورة تسمية الأشياء بمسمياتها:

فقال وبصيغة الحصر والقصر والوضوح ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾[العنكبوت ١٧]، سيدنا إبراهيم هنا يسمّي الأشياء بمُسمياتها، هذه الأوثان بالنسبة لهم يسمونها آلهة، بالنسبة لهم

هذه الآلهة التي تنفع وتضر، وهم الشفعاء عند الله، وهذه التي تُقدَّس، هذه التي محظور أن أحدًا يقترب منها، القداسة والمكانة والرمزية عند هذه الآلهة.

فسدينا إبراهيم يقول لهم كل هذه مجرد أوثان، هذه مجرد أخشاب وحجارة، ويوجد خلاف طويل بين أهل اللغة في الفارق بين الوثن والصنم، ومن يريد أن يطّلع فالإمام البقاعي تكلم فيه، ومن المعاصرين الشيخ حسن جبل في "المعجم الاشتقاقي" فصّل في الفرق بينهما للذي يريد أن يرجع للفروقات التي بينهما، منهم قال هذا على شكل صورة والذي قال هذا حجر وهذا من خشب، أيًّا كان في النهاية الأوثان التي تُشَكّل وتُعْبَد من دون الله سبحانه وتعالى.

فهو يقول لهم هذه ليست آلهة، تسمية الأشياء بمسمياتها مهم جدًا، ممكن المرء يتصور أن هذا شيء بدهي، لا، فتسمية الأشياء بمسمياتها مع مرور الزمان لا يصبح بدهيًا، فأن يقال على الزنا زنا ويقال على الربا أنه ربا، ويقال على الحرام أنه حرام، وعلى الفسق أنه فسق، مع مرور الزمن يَصْعُب أن يتكلم الإنسان بهذه الأمور ويوضح الواضحات، هذا صعب. لأنه ينشأ جيل لم يستمع للحق لفترة طويلة؛ فينشأ أجيال يقولون ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾[4]، يرون أن هذا –الخطأ– وضع طبيعي، مثلًا أصبح في مسمياتنا أن يقول لك: هل ستقيم عرسًا: إسلاميًا أم عاديًا؟ البنك: إسلامي أم عادي؟ وليس إسلامي أم ربوي؟! لا، يقول: عادي، أصبح الباطل هو العادي والطبيعي! فكأن الذي يريد أن يطبق الشرع هذا هو الخارج عن العادي، إنما العادي المتَقبّل بيننا أصبح هو الخطأ، فعندما يُسْكت على أشياء لفترة طويلة؛ ينشأ أجيال يرون أن هذا طبيعي، هذا مصطلح "عادي"، يقول: ملتزم أم عادي؟ فأصبح أن العادي هو المستقر عند الناس، والذي قد يكون مُخالِفًا لشريعة الله سبحانه وتعالى.

فهنا سيدنا إبراهيم يوضّح الواضحات ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[العنكبوت ١٧] هذه التي تسمونها آلهة هي ليست آلهة، هي مجرد أوثان. إذًا كيف أصبحت آلهة؟! كيف حدث التطور من كونها مجرد خشبًا وحجارةً ووثنًا إلى أن أصبحت آلهة؟ كيف حدث؟! قال تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾، أي: أنتم الذين فعلتم هذا، كذبتم الكذبة ثم صدقتموها، فهم الذين وضعوا التشريعات وعبدوها، ووضعوا القوانين وتحاكموا إليها، واخترعوا الأفكار ثم اندمجوا فيها، وضعوا هذه الفلسفة بأيديهم ثم تحاكموا إليها، فيقول لهم: أنتم الذين فعلتم ذلك ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾.

[4] ذكرت هذه الآية في [المؤمنون ٢٤] و[القصص 36].

لذلك استعمل سيدنا إبراهيم لفظ "الأوثان" حتى يُوضِّح الأشياء على حقيقتها، وهذه اللفظة لم تتكرر في القرآن كثيرًا، جاءت في سورة العنكبوت مرتين، ومرة واحدة في سورة الحج، أي تقريبًا: ثلاث مرات في القرآن، وجاءت هذه اللفظة مرتين في العنكبوت؛ لتبيين فساد ما هم عليه، -وسنتكلم إن شاء الله على مسألة ظهور الأوثان، وكيف كانوا يستفيدون منها-، قد يريد الإنسان أن يكفر كما في قول الله: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾[القيامة ٥]، فلماذا لا يقتصر الأمر على الكفر وحسب؟ لماذا يقوم بعمل أصنام أو أوثان ويعبدها؟ لماذا لا يفجر بعيدًا عن عمل الأوثان؟ لذلك ربنا هنا يقول أنّ سيدنا إبراهيم يقول لهم: ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾[العنكبوت ١٧]، ماذا تعني ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾؟

﴿إِفۡكًا﴾ بمعنى: كذبًا، فمنهم من قال مثل: الإمام الطبري أنّ "تخلقون كذبًا" هل بمعنى تصنعون وتنحتون الأصنام بأيديكم التي هي كذب؟ أم ﴿وَتَخۡلُقُونَ﴾ ليس معناها تنحتون وتصنعون بأيديكم وإنما معناها تكذبون بألسنتكم؟ فهل كلمة ﴿وَتَخۡلُقُونَ﴾ بمعنى ينحت ويصنع بيده أم يكذب؟ وما الفرق بين المعنيين؟﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾

- إذا كانت بمعنى "تصنعون": فالجريمة التي فعلوها، أنهم صنعوا هذه الأصنام بأيديهم.

- أما إذا كانت بمعنى "تكذبون": فالجريمة أنهم بعد أن صنعوا الأصنام سموها باسم ديني، مثلًا: بعد أن يعمل أحدهم قانونًا يُطلَق عليه "المشرّع"، بمعنى -مثلما قال الشيخ أحمد شاكر-: أن يبدأ يستعمل الألفاظ الموجودة في الشريعة على شيء من وضع الإنسان، ويبدأ يضفي القداسة والدين والتشريع على شيء صنعه بيده، فالجريمة في ماذا إذًا؟ في الاثنين، كونه يخلق أو ينحت ويصنع الصنم، ثم يسمّيه آلهة، ثم يضفي عليه القداسة.

إذًا، الجريمة من مجموع الأقوال -لو جمعنا بين القولين الواردَيْن عن السلف- في الاثنين، فعندما ترى أفكارًا، أو قواعدًا، أو أصنامًا، أيًا كان هذا الشيء، وهذا الشيء يُعبَد من دون الله، أو يُتحَاكَم إليه من دون الله؛ فالجريمة في شيئين: على من وضعه، ثم على من أضفى عليه القداسة والتشريع وأنّه من عند الله سبحانه وتعالى.

تخيل! إنسان مثل سيدنا إبراهيم لم يرَ قصة تطور الأصنام، وإذ فجأة يُولد في واقع كله يعبد الأصنام، ويَلْقى أباه وجده وخاله وعمه والدكتور والمهندس والنجار كلهم يعبدون الأصنام، فسيدنا إبراهيم كان بمفرده، حتى ربنا يقول: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞ﴾[العنكبوت ٢٦] بعد كل هذه الدعوة وهذه المعاناة! فإذًا هو

كان لوحده، وهو قال لزوجته هكذا: (ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك)[5]. فتخيل إنسان نشأ في واقع سيدنا إبراهيم، ولقيَ الناس المحيطة به كلهم بلا استثناء –سواءً كانوا أذكياء أم أغبياء، أو ذووا مقامات دنيوية أم لا، أقارب أو غيرهم– يعبدون الآلهة في هذا المجتمع، ورغم كل هذا يأتي ويقول لهم: هذه الآلهة مجرد خشب، وحجر، وأنتم الذين اخترعتم هذه المنظومة كلها، ومن المفترض أن هذا الأمر أصلًا بدهي.

يعني مثلًا عندما تأتي لدولة من الدول وهذه الدولة تُقدِّس قوانينًا وأفكارًا معينة، وبالنسبة لهم هذا أمر ممنوع المساس به، فيقول لهم شخص: أنتم الذين اخترعتم هذا كله، فكأنهم يردّون عليه ويقولون: "هذا صحيح، نحن الذين وضعناه واخترعناه فعلًا". ولكن، كلّما تطول المدة ويَكْبُر الإنسان على هذا؛ ينسى، فهو يسير مع هذا التقديس، والخروج عن هذه القداسة وهذه الهالة الدينية أمر صعب، فسيدنا إبراهيم يقول لهم: منظومة الأصنام تلك كلها أنتم الذين اخترعتموها من عند أنفسكم.

تخيل! كانت منظومة كاملة، ولم يكن الموضوع عشوائيًا؛ فلديهم معابد، وهذا يذهب إليها، ويقدّم قربانًا، وذاك يطوف، وهذا يُقبّل يد الصنم، وذاك يُقدّم له الفاكهة، وآخر يطوف عشر لفات، فعندما كسّر سيدنا إبراهيم الأصنام؛ اعتبروها جريمة عُظمى تستوجب الحرق! كيف يفعل هذا بالآلهة؟ فتخيل عندما يُقال لهم: أنّ هذه المنظومة كلها من صنع أيديكم، وكذب، وإفك، وافتراء، وهذا كله قلب للحقائق، فالشيء المأفوك أي: المقلوب، فأنتم الذين فعلتم كل هذا وصنعتموه!

---

[5] [عن أبي هريرة]: لَمْ يَكْذِبْ إبْرَاهِيمُ عليه السَّلامُ إلّا ثَلاثَ كَذَباتٍ، ثِنْتَيْنِ منهنَّ في ذاتِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ؛ قَوْلُهُ: **{إِنِّي سَقِيمٌ}** [الصافات: ٨٩]، وقَوْلُهُ: **{بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا}** [الأنبياء: ٦٣]. وقالَ: بيْنا هو ذاتَ يَومٍ وسارَةُ، إذْ أتَى على جَبّارٍ مِنَ الجَبابِرَةِ، فقِيلَ له: إنَّ هاهُنا رَجُلًا معهُ امْرَأَةٌ مِن أحْسَنِ النّاسِ، فأرْسَلَ إلَيْهِ فَسَألَهُ عَنْها، فَقالَ: مَن هذِه؟ قالَ: أُخْتِي، فأتى سارَةَ قالَ: يا سارَةُ، ليسَ على وجْهِ الأرْضِ مُؤْمِنٌ غيرِي وغَيْرُكِ، وإنَّ هذا سَألَنِي فأخْبَرْتُهُ أنَّكِ أُخْتِي، فلا تُكَذِّبِينِي، فأرْسَلَ إلَيْها، فَلَمّا دَخَلَتْ عليه ذَهَبَ يَتَناوَلُها بيَدِهِ فَأُخِذَ، فَقالَ: ادْعِي اللَّهَ لي ولا أَضُرُّكِ، فَدَعَتِ اللَّهَ فَأُطْلِقَ، ثُمَّ تَناوَلَها الثّانِيَةَ، فَأُخِذَ مِثْلَها أوْ أشَدَّ، فَقالَ: ادْعِي اللَّهَ لي ولا أَضُرُّكِ، فَدَعَتْ فَأُطْلِقَ، فَدَعا بَعْضَ حَجَبَتِهِ، فَقالَ: إنَّكُمْ لَمْ تَأْتُونِي بإنْسانٍ، إنَّما أتَيْتُمُونِي بشيطانٍ! فأخْدَمَها هاجَرَ، فأتَتْهُ وهو قائِمٌ يُصَلِّي، فأوْمَأَ بيَدِهِ: مَهْيا، قالَتْ: رَدَّ اللَّهُ كَيْدَ الكافِرِ -أوِ الفاجِرِ- في نَحْرِهِ، وأخْدَمَ هاجَرَ. قالَ أبُو هُرَيْرَةَ: تِلْكَ أُمُّكُمْ يا بَنِي ماءِ السَّماءِ.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣٣٥٨ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١) •

❖ الاحتياج لعالم الغيب:

*السؤال هنا: لماذا صنعوه؟ هم تخلّوا وابتعدوا عن فكرة العبودية لله سبحانه وتعالى، فلماذا وضعوا مكانها شيئًا آخر؟

لأنّ هذه حاجة الإنسان، حاجة الإنسان أن يكون بينه وبين الغيب صلة أو رابطة، بمعنى: الإنسان أصلُه مُتكوِّن من جزء طيني وجزء روحي؛ وهناك جزءٌ منّا أتى من عالم الغيب، فهناك عالم الغيب مثل عالم الشهادة الموجود، وعالم الغيب له تفاصيله، وهو عالم ضخم، فكما عالم الشهادة أيضًا ضخم، وهناك سماوات، وأرضين، وكواكب، ونجوم، وشموس، وأقمار، وبشر، وحيوانات، ونباتات، وجزئيات، فهناك أيضًا عالم آخر وهو عالم الغيب الذي يوجد فيه: ملائكة تصعد للسماء، وتعرج إليه سبحانه وتعالى، والعرش، عالم الغيب. فالله سبحانه وتعالى يعلم الغيب والشهادة، فنحن فينا جزء من عالم الغيب هذا، الذي هو نفخة من روح الله سبحانه وتعالى، فأنت لك تَعلّق بهذا العالم –الغيب–.

وكما أن بدنك وجسمك متمسكٌ بعالم الشهادة؛ فيتغذى من عالم الشهادة، مثلًا عندما تكون جوعان وأقول لك: سأقول لك بعض الكلام الإيماني لعلك تهدأ، سترد: أريد أن آكُل ولا أريد كلامًا، فهو لا يستطيع سماع أي شيء؛ لأنه يحتاج الأكل أولًا ثم يستطيع أن يسمع كلامًا ويُصلّي ويفعل كل شيء، وأيضًا لو يحتاج النوم فأيضًا هذا احتياج ولا يستطيع فعل شيء آخر، فهذه احتياجات للبدن. فكذلك الروح عندما تفقد الاتصال بعالم الغيب، ولا يأتي لها رسالة منه؛ تبدأ تبحث، وهذا سر أنه لا تخلو – مثلما كثير من المؤرخين قالوا– أي مدينة على مدار التاريخ من البحث عن أي علاقة بالغيب، مثل: أن يصنعوا معبدًا، فمن استقراء التاريخ أنهم وجدوا مُدُنًا بدون قصور، أو مصانع، لكن لا توجد مدن أبدًا بدون معابد؛ لأنّ هذا احتياج فطري. من الكتب الجميلة كتاب "فطرية الإيمان عند الأطفال"، من "مركز دلائل"؛ فهذا شيء فطري، وأنّه طبيعي أنّ الإنسان يبحث؛ لأن هناك شيئًا ينقصه فيبحث عنه.

فيأتي أهل الباطل عندما انتكست فطرتهم وابتعدوا؛ أرادوا أن يسدّوا هذه الفجوة التي حدثت عند الناس حتى لا يبحثوا، وقرروا وضع مركز آخر للناس، فهم تركوا وتخلَّوْا عن فكرة العقيدة في الله، فيجب أن يضعوا لهم مركزًا آخر يؤمنون به ويطوفون حوله، وهذا المركز يجب أن يكون من صنعهم؛ حتى يستفيدوا منه، والقربان يصل إليهم، فالفكرة أصلًا مادية بهدف التكسُّب، –وسنتكلم عن فكرة أنّ الأوثان كيف تأتي بالمادة وأنها سبب في الرزق بالنسبة لهم–. إذًا، أهل الباطل استغلوا حاجة الإنسان أن يتعلق

بالغيب؛ فصنعوا لهم أوثانًا، وهم الذين يخلقونها أيضًا؛ حتى تأتي لهم بالمصلحة، والمادة، والأموال، فكان يحرص أهل الباطل على البناء الذي صنعوه أن يظل متماسكًا، وألا يهدمه أحدٌ.

فسيدنا إبراهيم واجههم بالحقيقة أمام الناس وقال لهم: أنّ هذه المنظومة الدينية كلها أنتم الذين أنشأتوها، وهم يستفيدون منها، ويستخدموها لقهر الناس؛ لأن الناس تُخضَع بسلطان القوة وسلطان الدين، فَقَدْ يوجد إنسان قويٌ، ويستطيع مقاومة القوة، ولكن يخاف من عالم الغيب؛ فأهل الباطل يستعملون سلطان القوة والدين لتخويف الناس. مثل: فرعون، الذي كان يستعمل القوة، ولكن في نفس الوقت يستعمل الدين؛ ليضغط به على الناس كما في قول الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ انظر إلى اللفظة! فرعون يقول لهم: أنا خائف على دينكم، ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾[غافر ٢٦].

فسيدنا إبراهيم يواجه أهل الباطل بقمة الوضوح، ويقول لهم: هذه المنظومة كلها التي تستفيدون منها، وأنتم فيها السادة؛ أنتم الذين افتعلتموها وتضحكون بها على الناس ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾[العنكبوت ١٧]، وقد تكون هذه المنظومة كلها أُسِّسَت؛ لأجل جلب الرزق والمال، فلذلك يخافون من هدم هذه المنظومة.

فعندما ننظر إلى قصة الأوثان عند الكعبة قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، حاول كثير من المؤرخين أن يدرس: لماذا تركت قريش أكثر من ٣٠٠ صنم، تقريبًا ٣٦٠؟ وكيف أنّ هذا كان مفيدًا اقتصاديًا لها، -وأظن شرحتها سابقًا-. من الكتب التي اهتمت بتأريخ هذه الفترة: كتاب "تاريخ الكعبة" للدكتور حسن الخربوطلي -كتاب ١٨٠ صفحة من القطع الصغير-، يوجد كتاب أكبر قليلًا وهو كتاب "مكة والمدينة في الجاهلية" للدكتور أحمد محمد الشريف، أو كتاب في السيرة -لمن يريد أن يرجع لتلك المعلومات بالتفصيل- اسمه "الوسيط في السيرة النبوية" لهاشم يحي الملاح، أو غيرهم من الكتب التي اهتمت بتأريخ تلك الفترة التي كانت قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم. هذه الكتب تدرس: كيف وصلت مكة إلى هذه المرحلة من العلاقات المتشابكة والمتلاحمة، والكثير من المصالح المتداخلة، والوضع المستقر، وكيف أصبح انتشار الدين في مكة أصعب من المدينة، وهذه العلاقات المتشابكة كانت متمثلة في تقسيم المهام إلى عشر مهام -أشار إلى هذا أكثر من مؤلف من الذين كتبوا التاريخ في هذه الفترة-، وكل واحد منهم يأخذ مهمة معينة من هذه المهام.

فوجود الأوثان كان عاملًا قويًا يدرّ اقتصادًا رهيبًا، على الرغم من أنّ مكة في حد ذاتها لا يوجد فيها أي شيء يجلب لهم المال؛ فهي ليست أرض زراعية أو أرض خصبة، فهي ليست مثل: الطائف، أو الشام،

أو اليمن، فاستغلوا وجود الكعبة، واستغلوا الدين؛ ليجلب لهم المال. وأصبح الذي يأتي للكعبة إذا أراد أن يترك صنمه يجب عليه دفع المال، وأيضًا لا يستطيع أحدٌ أن يُغير على قريش عند ذهابهم إلى رحلتي الشتاء والصيف؛ لأنهم يهددونهم بكسر أصنامهم، ومسألة الأصنام كانت عظيمة في نفوس الناس وقتها.

لذلك عندما قال ربنا في سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾[التوبة ٢٨]، تكملة الآية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾،كانوا خائفين من الفقر؛ لأن وجود الأصنام كان سببًا في التجارة، فكان هناك موسم تجاري، وكل القبائل تأتي. فعندما تكسر هذه الأصنام؛ أنت هكذا لست تُعادي قريشًا فقط، انتبه إلى خطورة هدم الأصنام التي حول الكعبة، فهي ليست معاداة لقريش فقط، حتى لو سَمِعَت قريش كلام النبي صلى الله عليه وسلم، فهي خائفة من كسر هذه الأصنام؛ لأن كسرها سيسبب لها قطع وكسر كل هذه العلاقات المتشابكة والمصالح المتداخلة، وهي لا تقدر على ذلك. فهم يريدون الحفاظ على هذا الوضع القائم؛ لأنه وضع متداخل والكل مستفيد منه، حتى لو كان الكل لديه بعض الاعتراضات لكن الموضوع أصبح متشابكًا ومتداخلًا، مثل: فرعون عندما قال: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾[الشعراء ٥٦]، يقول لقومه: نحن نحتاج أن نتخلص من بني إسرائيل؛ لأن كلنا سنتضرر إذا فلتوا من أيدينا: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾، فساندوني للخلاص منهم.

فهذا الذي كان موجودًا، أن التخلص وكسر الأوثان لم يكن مجرد صنمًا يكسر، لا، هذا فسخ لعلاقات ضخمة وإعادة علاقات جديدة، هم غير قادرين عليها، ولا يريدون أن يتحملوا تبعاتها؛ لذلك عندما جاء أهل المدينة وجاء الأنصار كانوا يفهمون أن علاقتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم ممكن أن تؤدي إلى حرب العرب والعجم، يفهمون تبعات ذلك.

❖ عقيدة "الرزق بيد الله":

إذًا فهو- بكل بساطة وبكل وضوح- سيدنا إبراهيم أتى بكل الذي ذكرته، يختصر سيدنا إبراهيم ويوجه لهم الحديث قائلًا: كل هذه المنظومة كذب، ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت ١٧] لو أنكم تفعلون هذا لأجل الرزق ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ أي لو أنكم معتقدين أن الأصنام أو المنظومة التي صنعتوها تأتي لكم بالرزق فهم لا يملكون أي شيء من الرزق والله سبحانه وتعالى يملك كل ألوان الرزق. كما قال تعالى ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾[التوبة ٣٤] أحيانا المنصب الديني يكون سببًا في

المال، فأنت تخاف من أن تتكلم بالحق لكي لا تخسر هذا، وأيضًا كما في قوله تعالى ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[الواقعة ٨٢]أحد الأقوال في "وتجعلون": أن أحيانًا يكون مصدر رزقك هو الكذب على الله والافتراء على الله، والأشهر: وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ﴾[العنكبوت ١٧] انظر كيف أن سيدنا إبراهيم عالم بمداخل النفوس، يعرف أن أكثر شيئين يؤثران في الإنسان ويجعلاه يغير من عقيدته للأسف **الأمن والرزق**، هنا سيدنا إبراهيم تكلم عن الرزق؛ لأن سورة العنكبوت تتكلم عن هذين المحورين بصورة واضحة الأمن والرزق، وختام السورة يركز على هاتين النقطيتين؛ أن الأمن والرزق بيد الله سبحانه وتعالى، وأن كثيرًا من الناس يمتنع عن السير في الحق بسبب هذين الشيئين. وفي السورة التي قبلها مباشرة سورة القصص قالوا: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ﴾[القصص ٥٧] انتبه، لا يقولون {إن نتبع الضلال معك} بل ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ﴾ سموه هدى لكن سيأتي منه مشاكل ﴿نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ﴾؛ فربنا يقول لهم إذا كان في الجاهلية جعل لكم ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ وجاء لكم بالرزق ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ ألن يفعل هذا في الإسلام؟

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾[العنكبوت ١٧] "رزقًا" هنا جاءت نكرة أي لا يملكون لكم أي رزق، ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ جاءت معرفة "الرزق" للاستغراق أي فابتغوا عند الله كل الرزق، **فهم لا يملكون أي شيء من الرزق والله سبحانه وتعالى يملك كل ألوان الرزق.**

وعقيدة أن الرزق بيد الله عقيدة صعبة أن تستقر في القلب؛ لماذا؟ لأن الأسباب من حولنا متغيرة، فعلًا من أصعب العقائد **أن الله سبحانه وتعالى بيده النفع والضر وأن الله سبحانه وتعالى بيده الرزق.**

والقرآن تكلم عن هذه العقائد كثيرًا لتستقر في القلوب وهي أن حياتك بيد الله، وأن رزقك بيد الله، هذه عقيدة صعبة، أن تغرسها في قلبك والقرآن دندن عليها كثيرًا؛ لأنه كلما حاولت أن تغرسها يحدث موقف يجعلك تعود للقلق وتشك، فلان ممكن يقطع رزقي.. وفلان.. وتبدأ تخاف، فمهم أن تركز في هذا المعنى وأن يستقر بداخلك.

﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ ما علاقته بآية ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ﴾؟

– قد يكون: فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه لتنالوا هذا الرزق.

– أو فابتغوا عند الله الرزق بالأسباب التي وضعها في الأرض وهي السنن التي وضعها في الأرض، فأنتم اضربوا في الأرض وإياكم أن يشغلكم هذا الضرب في الأرض عن العبادة.

﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ﴾ إما معناها: أن الذي يأتيكم بالرزق عبادة الله، أو ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ﴾: أي أن الله وضع سننا في الأرض لتحصيل الرزق، الضرب في الأرض وهذا مباح، اضرب في الأرض لكن إياك أن يشغلك هذا الضرب عن العبادة وعن الشكر: ﴿وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾، ثم ستُسأل عن هذا الرزق: ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

إذًا سيدنا إبراهيم هنا بيَّن الحق، وهدَم الباطل، والتقط الدافع الذي جعلهم ينشئون الباطل، وتكلم عن أصل نشأة الباطل، إذًا لو أردت أن أبين الحق عليَّ أن أصف الوضع القائم وأنه باطل وأشرح نشأته ومن أين جاء، وأسباب وجوده، وما المانع أن يتبع الناس الحق، كل هذه طرق القرءان يشير إليها، فعلينا أن نتبعها في بناء صرح الحق وهدم الباطل.

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾[العنكبوت ١٨] هنا المفسرون اختلفوا في ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ من يكلم من؟ أي أن الخطاب هنا موجه لمن؟

هل سيدنا إبراهيم يكلم قومه؟ أم حدث انتقال في الخطاب؟ وأن ربنا هنا يكلم قوم النبي صلى الله عليه وسلم، أو كأنها إشارة أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول هذا لقومه؟ هناك قولان:– أن كل الآيات التالية –من آية ١٨ إلى الآية ٢٣–

– من العلماء من قال أن السياق مستمر، وأن هذا كلام سيدنا إبراهيم مع قومه ولا توجد أي جملة معترضة.

– وهناك من قال لا، السياق حدث فيه اقتطاع وأن قصة سيدنا إبراهيم استمرت حتى آية ١٧ ثم توقفت، وتكملة قصة سيدنا إبراهيم في قول الله سبحانه وتعالى في الآية ٢٤ : ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾ [العنكبوت ٢٤]، وأن الآيات بينهما جاء القرآن بجمل معترضة يخاطب الأقوام الموجودين الذين يسمعون القرآن، أي حدث التفات. كما أكون مثلًا –ولله المثل الأعلى– أحكي قصة لشخص ثم جئت عند موطن العبرة والشاهد فتركت القصة وبدأت أخاطبه، أتكلم مثلًا مع شخص عن أهمية العبادة

أو أهمية الصدق وخطورة الكذب، وأحكي له قصة وفي أثناء القصة ألتفت إليه هل رأيت الصدق ورأيت عقوبة الكذب أو مآل الشرك، ألتفت إليه وأوجه له العبرة ثم أرجع وأكمل القصة.

فهناك من قال أن هذا جملة معترضة والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، وهذا اختيار الطبري، وهو مروي عن قتادة، وهناك من قال لا، الخطاب كما هو السياق عن سيدنا إبراهيم، وهذا اختيار الإمام ابن كثير والقرطبي، وأبو السعود قال هذا قول المحققين، أما الزمخشري فقد جوَّز القولين، قال هذا يجوز وله توجيه وهذا يجوز وله توجيه، حتى تعلم إذا أردت أن تقرأ في تفسير، وهذا التنوع يثري المعاني.

إذًا لو ربنا يكلم قريشًا، أو لو النبي صلى الله عليه وسلم يقول لقريش هذا الكلام كرسالة من ربنا، فيكون المعنى: إياكم -يا قريش- أن تسيروا على درب قوم إبراهيم وتعرضوا بعد مجيء البيّنات، ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾[العنكبوت ١٨] أي يا قريش ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ﴾ ومنهم قوم إبراهيم، وكما أن الرسول إبراهيم بلَّغ؛ فمحمد صلى الله عليه وسلم ليس عليه إلا البلاغ المبين، وبعد ذلك النبي صلى الله عليه وسلم يقول لقريش ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾[العنكبوت ١٩].

ولو أن سيدنا إبراهيم هو الذي يخاطب قومه، فالمعنى: أنه بعد أن شرح لهم التوحيد يكلمهم عن الرسالة، -وما سأقوله يدل أن هذا من كلام سيدنا إبراهيم-، ثم يكلمهم عن البعث وأن هذه أصول الدعوة الثلاثة -مثلما يقول الرازي-. فهو كلمهم عن "**التوحيد**" ثم سيتكلم عن الرسالة "**النبوة**" ثم سيتكلم عن "**البعث**"، مهم جدًا -في الدعوة- أن تتكلم عن هذه الأصول الثلاث.

* ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾[العنكبوت ١٨] ما معنى الآية -أيا كان القائل-؟

المعنى: أن مهمتك أن توصل الحق وتهدم الباطل، ثم تقول لهم رسالة في وسط الكلام ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾، بمعنى أن تكذيبكم ليس قصورًا في عملي، أنا وظيفتي أن أُبلغ البلاغ المبين، وقد يكون هناك بلاغ مبين ويؤمن كل الناس، وقد يكون هناك بلاغ مبين ولا يؤمن أحد، وقد يكون هناك بلاغ مبين والنبي ويأتي معه الرجلان، والنبي يأتي معه رجل، والنبي وليس معه أحد.

فأحيانًا البلاغ المبين لا يكون مرتبطًا بكثرة الاستجابة، أي لا يوجد تلازم، فلا يلزم من أن هناك بلاغًا مبينًا واضحًا أن تكون هناك استجابة كبيرة، فأحيانًا تكون عدم الاستجابة بسبب مشكلة فعلًا في البلاغ المبين بسبب مشكلة في الأسلوب مثلًا، لكي لا يأتي من ينصح ويقول لك: أسلوبك خطأ أو أسلوبك منفر أو محتاج أن تغير الأسلوب، فتقول: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، والنبي وليس معه أحد، هذه لا تصلح مع كل موقف، فقد تكون مخطئًا.

لكن الشاهد هنا أنه لا يوجد تلازم؛ لأن هذا نبي وقدَّم البلاغ المبين وبالرغم من ذلك أعرضوا، أو هناك إشارة أنكم لن تضروا الله شيئًا، أنتم ستكذبون، الذي قبلك كذب أيضًا فأين هو الآن؟ فعندما يقول أحدهم: مَن أشد منا قوة؟ فترد عليه: الذين قبلك قالوا هذا أيضًا ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ﴾، ثم أين هم الآن ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزًا﴾[مريم ٩٨] ماتوا، أخذهم الله سبحانه وتعالى بذنوبهم.

وأصلًا كلمة ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[العنكبوت ١٨] – ربنا يثبتنا– ليست سهلة، سيدنا إبراهيم يقول لهم: أنا مطالب أن أجاهد وأبلغكم الحق كاملًا، هذه ليست سهلة، البلاغ والمبين أي الواضح الذي لا لبس فيه، من الممكن أحيانا تقول كلمة تحتمل معنيين، لا، سيدنا إبراهيم يقول لهم لا، أنا عندما أقول لكم الكلام سأقول كلامًا واضحًا ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

❖ عبادة التفكر:

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ أيا كان سيدنا إبراهيم الذي يتكلم، أو الخطاب لقوم النبي صلى الله عليه وسلم ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[العنكبوت ١٩]، هنا الكلام على البعث وبعد ذلك ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[العنكبوت ٢٠] هاتان الآيتان بعدما تكلم –خطاب سيدنا إبراهيم– عن التوحيد، وهدم الباطل، ووظيفته الرسالية الواضحة والبلاغ المبين، ثم إن معي آيات أخرى غير الوحي، هناك آيات حسية مبثوثة، وما أقوله يشهد له الكون، أي أن ما أدعوكم إليه من عبادة الله سبحانه وتعالى ما أقوله ليس بدعًا من الكلام، بل انظروا حولكم، كل ما في الكون يشهد لكلامي، انظر الشمس، القمر، الأرض، النبات، الحيوان، الطفل: نطفة... مضغة...، انظر حولك كل ما يحدث هل أنت ترى أنه يحدث عبثًا؟!

كل النظام والدقة والإتقان وأن كل المخلوقات تمر بمراحل تكبر ثم تأفل ثم تعود، هذه السُّنة التي وضعها الله سبحانه وتعالى في خلقه، أليس هذا له دلالة على البعث، أليس له دلالة على الموت؟! أنك لن تستطيع أن تفر من الموت مهما فعلت، بل لن تستطيع أن تفر من النوم وليس من الموت حتى أخو الموت لن تستطيع، لا تستطيع أن تمنع نفسك عن النوم، ستنام غصبًا عنك.

وهذا من صور قهر الله لعباده، فهو يقول لهم انظر حولك، انظر للمخلوقات تأتي ثم تموت ثم تأتي ثم تموت، انظر إلى الأرض، تكون في قمة النضارة والخضار فتموت ثم ينزل الماء فيبعثها فتخرج الأرض خيراتها، انظر كيف يحدث هذا! هذه دلالة على أن هذا سيحدث معكم، والذي أخرج من الطين الأسود هذا النبات الأخضر، قادر على أن يبعثكم. بصق النبي صلى الله عليه وسلم في يده بصقة وقال: يقول الله عز وجل: (يا ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذا)[6]، ماذا كان أصل الإنسان؟ ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[الذاريات ٢١]، **فالإنسان يحتاج لأن يتفكر بعقله وينظر بعينه،** فبعضهم قال الآية الأولى ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾[العنكبوت ١٩] أن يتفكر بعقله، والثانية ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[العنكبوت ٢٠] أن ينظر بعينه، فهناك آيات مشاهدة حولنا.

﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تأكيد لقدرة الله سبحانه وتعالى وهنا نقطة مهمة أن سيدنا إبراهيم استعمل الآيات المبثوثة للدلالة ليس على وجود الله ولكن للدلالة على قدرة الله وهناك فرق. لأنه عندما يطول النقاش مع الملحد حول وجود الله سبحانه وتعالى فأنت تستهلك جزء كبيرًا من الطاقة العقلية والنفسية والذهنية في إثبات الوجود فقط، وهذا ليس أسلوب القرآن، القرآن يتجاوز هذه النقطة سريعا؛ لأنها نقطة فطرية فيشير إليها إشارات، ثم ينتقل لتبعات الاعتراف بوجود الله كما سوف نرى الآن.

لكن أحياناً البعض يدخل في نقاشات وصراعات كلامية مع الملحدين، ومعادلات إمكان وحدوث، وقصص طويلة، وهذا ليس أسلوب القرآن.. لأن القرآن يشير إشارات واضحة ويجب استعمال الأساليب

[6] [عن بسر بن جحاش القرشي]: يقولُ اللهُ تعالى: يا ابْنَ آدمَ ! أنّى تُعْجِزُني وقد خلَقْتُكَ من مِثْلِ هذا ؟ حتى إذا سوَّيْتُك وعَدَلْتُك، مَشَيتَ بين بُرْدَيْنِ ولِلأرضِ منكَ وئِيدٌ، فجمعْتَ ومَنعْتَ، حتى إذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ قُلتَ: أتصدَّقُ، وأنّى أوانُ الصَّدَقةِ ؟!

الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ٨١٤٤ • صحيح •أخرجه أحمد (١٧٨٤٢)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٨٦٩)، وابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٢٤٥) باختلاف يسير •

القرآنية الموجودة في النقاش، وهذا مهم أيضًا. لا أريد أن أُطيل عليكم ولكن هناك بعض الناس للأسف يستدلّون بالآية: ﴿كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَ﴾ على نظرية التطور مثل الدكتور عمرو شريف وهذا خطأ، ورَدّ عليه كثير من الناس مثل كتاب "التطور الموجه" الذي كُتب للرد عليه. وللدكتور سلطان العميري مقالة جميلة جدًا عنوانها: "الاستدلال بالقرآن على فرضية التطور قراءة نقدية"، فأتى بالآيات التي استدلوا بها على نظرية التطور ورَدّ عليها.

الشاهد: * أن استعمال ليّ أعناق الآيات القرآنية لتوافق نظريات معينة هذا خطأ، وهذه هي النقطة الأولى، وهي من أخطاء التعامل مع القرآن في النقاش مع المعرض.

* النقطة الثانية أن بعضهم يقولون لك: كيف ستكلمه بالقرآن وهو ملحد، فهو يحتاج إلى أدلّة عقلية، وهناك من يسمي القرآن أدلة نقلية أو سمعية لأن القرآن جاءنا عن طريق النقل، هذه التقسيمة غير صحيحة أو أنكرها بعض أهل العلم. وشيخ الإسلام ابن تيمية فصّل كثيرًا في هذه المسألة أن القرآن في حد ذاته –وهو دليل نقلي– يحتوي على أدلة عقلية، بمعنى أنك حين تكلمه بدليل عقلي من القرآن، هو لا يعنيه من أين جئت بهذا الدليل، فأنت هنا لا تقول له هذه الآية بصفتها آية قرآنية؛ وإنما تقولها كدليل عقلي، لأن الأدلة العقلية التي استعملها القرآن هي أقرب طريقة نصل بها إلى نفس الإنسان؛ لأن الذي خلق النفس البشرية يعلم نقاط ضعفها.

وهذا أمر طويل لكن هذه كانت إشارة سريعة؛ لأن بعض الشباب أحيانًا يخوض نقاشات طويلة، ونجد في القرآن أن هناك مراحل يقفزها عن عمد؛ لأن الوقوف فيها كثيرًا ليس صحيحًا؛ لأن ذلك يسمح للآخر بأن يراوغ ويحول قضية إثبات وجود الله لمعادلات مؤداها أنه يحتمل، لا.. القرآن لا يفعل هذا، القرآن يشير إلى الأدلة القاطعة، ويقفز على تبعات عدم الإيمان بما تقول.

مثلما فعل سيدنا إبراهيم، حيث أتى بالحق، وشرح الباطل وهدمه، وشرح وظيفته –كرسول–، وأتى بأدلة على الوجود، وأدلة على القدرة، وبعد ذلك انتقل إلى تبعات المعرض، ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾[العنكبوت ٢١] من يعرض عن هذا الكلام، ﴿وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ يدخله في رحمته بالإيمان، ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾: وإذا أصررتم على الإعراض سترجع إلى ربك رغمًا عنك، وإليه تُقلب شئت أم أبيت، جاءت هنا بصيغة المبني لغير الفاعل، ومعناها: ليس باختيارك ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[العنكبوت ٢٢] الله سبحانه وتعالى قادر على أن ينزل عليكم عذابًا في دنياكم، لكن على من ينزل هذا العذاب؟ جاءت قبلها آية مهمة؛ لأن بعض الناس يشكون في آيات الله، فقال الله أولًا ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾[العنكبوت ٢١] ربط التعذيب الدنيوي بالمشيئة –لو قلنا أن المقصود بها التعذيب الدنيوي وبعضهم قال أن المقصود بها هو التعذيب الأخروي– بمعنى أنه ليس كل كافر ينال عذابه في الدنيا، بل الأصل أن يؤجل العذاب. فعندما يرى بعض الناس أن هناك شخصًا ظالمًا وكافرًا وملحدًا ومُعرضًا ويعيش حياته بشكل طبيعي ويكون مُنعّما ثم يموت ميتة عادية طبيعية جدًا يبدأ يشك، لا، الله سبحانه وتعالى قال ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾.

مثل الرزق، فدائما الرزق والعقوبة مرتبطان بالمشيئة ﴿مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾[الإسراء ١٨]، قيد آية الإسراء هذا مهم جدًا في التعامل مع كل آيات الرزق في القرآن؛ فكل آيات الرزق في القرآن مثل: إذا آمنتم بربنا؛ فسوف يفتح عليكم خيرات من السماء، كل آيات العطاء والرزق التي في القرآن تحت قيد سورة الإسراء ﴿مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ * وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [العنكبوت 21-٢٢]، يوجد هنا معنيان:

– المعنى الأول يقتضي بأنكم لستم بمعجزين سواء كنتم في الأرض أو في السماء، بمعنى أنكم إذا اكتشفتم اكتشافات جعلتكم تصعدون إلى السماء فأنتم تحت قدرة الله أيضًا ولن تبعدوا عنها.

– المعنى الثاني: أن أهل الأرض ليسوا بمعجزين وأهل السماء أيضًا ليسوا بمعجزين.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾[العنكبوت ٢٢] اتخذتم الأوثان لتنصركم من دون الله، لكن إن أعرضتم عن شرع الله ما لكم من دون الله من ولي ولا نصير.

سيدنا إبراهيم يقول لهم هذا الكلام الذي أقوله، –سواء هذا كلام سيدنا إبراهيم أو كلام النبي صلى الله عليه وسلم–، فهذا الكلام والآيات والبراهين والأدلة ليست للترف الذهني، حيث أن إبراهيم عليه السلام لم يستعمل هذا الأسلوب، بل في النهاية قال لهم أنا تكلمت عن الآيات، وتكلمت عن البعث ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾[العنكبوت ٢٣] هؤلاء لهم عقوبة. الموضوع ليس اختياريًا، فيقول

لك شخص: ما هذا، الله يقول ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف ٢٩]؟ فلتكمل الآية! ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ إذًا ﴿وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ليس معناه أنك تختار مثلما تريد، لا، هذا تهديد.

نضرب مثالًا: لو كان هناك مكان به أوبئة وأمراض وأراد شخص أن يدخل هذا المكان وأنت تريد أن تحذّره فقلت له: على راحتك، هذا المكان به أوبئة وأمراض ومن دخله قبلك تعذّب ومات، فإذا أردت الدخول فادخل، هذا ليس معناه أنك تضع له خيارات، لا، هو شخص مصرّ فماذا تفعل معه؟ ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[الغاشية ٢٢].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾[العنكبوت ٢٣] هذا تشنيع لفعلهم؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما أخبرنا أن الله سبحانه وتعالى يُعطي الحسنة بهمّ، أن تَهمّ بالحسنة ولا تفعلها تأخذ حسنة، وإذا عملتها تضاعف من عشر إلى سبعمائة ضعف، وإذا هممت بالسيئة فلا تفعلها خوفًا من الله تكتب لك حسنة، وإذ عملتها تُكتب سيئة واحدة. فالأربع معادلات هي:

- همّ بالحسنة ولم يفعلها فأخذ حسنة.
- وهمّ بالحسنة وعملها أخذ عشر حسنات.
- وهمّ بالسيئة ولم يفعلها يأخذ حسنة، هؤلاء الثلاثة حسنات ومنهم تُضاعف.
- الرابعة همّ وعمل سيئة فأخذ سيئة واحدة.

فالنبي صلى الله عليه وسلم قال في آخر الحديث: (ولا يهلك على الله إلا هالك)[7] كيف هلك بعد كل هذه الآيات؟ فبعدما شرح سيدنا إبراهيم كل هذه الآيات ولم يؤمنوا فهم يستحقون ما سيحدث لهم،

[7] [عن عبدالله بن عباس]: عَنْ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ فِيما يَرْوِي عن رَبِّهِ تَبارَكَ وتَعالى، قالَ: إنَّ اللَّهَ كَتَبَ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذلكَ، فَمَن هَمَّ بحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها، كَتَبَها اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، وإنْ هَمَّ بها فَعَمِلَها، كَتَبَها اللَّهُ عزَّ وجلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَناتٍ إلى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ إلى أضْعافٍ كَثِيرَةٍ، وإنْ هَمَّ بسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها، كَتَبَها اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، وإنْ هَمَّ بها فَعَمِلَها، كَتَبَها اللَّهُ سَيِّئَةً واحِدَةً. وفي رواية: وزادَ: ومَحاها اللَّهُ ولا يَهْلِكُ علَى اللَّهِ إلَّا هالِكٌ.

مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ١٣١ • [صحيح] •

رحمتي التي ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأعراف ١٥٦] هم اختاروا أن يبتعدوا عنها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت ٢٣].

توضيح وبيان وتفصيل وترتيب في الكلام، كلام عن العبودية، وعن هدم الباطل، وتاريخ نشأة الباطل، وتوضيح أنكم الذين افتريتم على الله الكذب، تخلقون إفكًا، آيات مبثوثة. القرآن يأتي بآيات للإشارة، وأنت تمسكها وتُسقطها مثلما تريد، فهذه الآية ممكن أن يكتب فيها كتاب وسلسلة كتب عن قدرة الله في الكون وآيات الله المبثوثة في الكون، فسيدنا إبراهيم هنا لما استعمل هذه الإشارات هذا معناه أننا نستعمل هذا الدليل والبرهان، وهذه الطريقة التي تكلم بها سيدنا إبراهيم هنا هي نفسها التي ذُكرت في سورة الأنعام، التي استعملها سيدنا إبراهيم سواء مع قومه أو مع نفسه.

❖ جواب قوم إبراهيم:

بعد كل هذا الوضوح والتبيين والترتيب -الحجة-، كيف سيردون؟ في سورة الأنبياء سيدنا إبراهيم أضاف إلى هذه الحجة الكلامية حجة فعلية، بمعنى أنه إذا كان الكلام غير كافيًا وهم ليسوا مصدقين أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر فسأكسرها ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾[الأنبياء ٥٨] فاجتمعت الحجج على كلامه.

إذًا هناك حجة كلامية واضحة وحجة فعلية واضحة. فماذا كان جواب قومه؟ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ﴾[العنكبوت ٢٤] تخيل أنك تقرأ هذه الآية لأول مرة وتتخيل على ماذا سيردون؟ هل سيردّون على موضوع العبادة أم التوحيد أم البعث أم النبوة؟ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

مثلما حدث مع سيدنا موسى لما ذهب إلى فرعون، وسيدنا موسى يتكلم بالحجة ويقول له أنا عندي دليل، فأحب فرعون أن يظهر أمام قومه بأنه يحب النقاش والأدلة فقال له: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء ٢٣]؟ قال موسى ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾[الشعراء ٢٤] بعد ذلك قال له ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾[الشعراء ٢٨]، ثم قال ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[الشعراء ٢٦] فهكذا أُفحِم فرعون، فحاول تغيير الموضوع ليتهرب ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[الشعراء ٢٧] وحاول أن يدخل الناس في الحوار، فسيدنا موسى عليه السلام أيضًا دخلهم في الحوار: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ

ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[الشعراء ٢٦] كلما حاول فرعون أن يراوغ يُفحمه موسى. فقال له فرعون في النهاية ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾[الشعراء ٢٩]، ولسان حاله: أنا أخطأت حينما فتحت باب المناظرة والنقاش.

فالشاهد أن أهل الباطل دائمًا حين تُعجزهم الحجة فهذا فعلهم، وهذه المعركة لا ينبغي أن نُهزم فيها أبدًا، أن نُهزم في المعركة المادية هذا وارد وحدثت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾[آل عمران ١٤٠]، لكن أن نُهزم في معركة الحجة فهذا دليل قصور عند المتكلم، مثلما يقول شيخ الإسلام: "**ينبغي لمن قام يناظر أهل الباطل أن يقوم بمناظرة تقطع دابرهم**"، فيكون عنده الأدوات ومتمكن منها، وهذه خطورة التصدّر لمناظرات لا يحسنها الإنسان أو الكلام في قضايا لا يحسنها الإنسان.

الشاهد: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾[العنكبوت ٢٤] إجابة واحدة فقط، وإن كانت الإجابة نفسها حصل فيها بينهم خلاف، هم تجمعوا –مثلما ذكر بعض المفسرين– على أن يتخلصوا منه لكن اختلفوا فيما بينهم كيف نتخلص منه؟ فبعضهم قال نقتله والبعض قالوا لا إذا قتلناه فإننا قتلنا أناس كثيرون فهكذا يكون مثل أي إنسان عادي، لكن هذا يستحق قتلة مختلفة؛ لأن سيدنا إبراهيم مثلما يقول البقاعي: "عمل عَملة مُفردة في الدهر"، أي: فعل شيئًا لم يفعله أحد من قبل، فقد كسر أصنامنا. فيجب أن نقتله بطريقة مختلفة.

كما ذكر الله في سورة الأنبياء ﴿فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ﴾[الأنبياء ٦١] يجب أن نشعل نارًا كبيرة ونتركها فترة طويلة –كما في الآثار الواردة في الإسرائيليات– ونُشرك كل البلد في إشعال النار، بل كانت الحامل مثلًا تنذر للآلهة أنه إذا نزل ابنها سليمًا فسوف تأتي بحطب وترميه في النار، وهذا يقول لو نجحت مثلًا سآتي بحطب وأضعه في النار وهكذا، ويتركون النار فترة طويلة؛ لأنهم يريدون أن يكون هناك مشاركة مجتمعية لقتل إبراهيم! يريدون أن يشارك الكل في الدفاع عن الآلهة! ندافع عن شيء مقدّس ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾[غافر ٢٦] نفس التفكير، فهم قالوا الكل يشارك في الإحراق؛ لأنهم إذا قتلوه قتلة عادية فسيقولون قتل خطأ وحدث كثيرًا من قبل، لكننا نريد هذه المرة شيئًا تخويفيًا وليس مجرد التخلص منه لكي لا يفعل أحد هذه الفعلة مرة أخرى.

﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[العنكبوت ٢٤] أريدك أن تتخيل كما ذكرنا في سورة يوسف كأنك تقرأ الآيات لأول مرة، أنت مُتصور أن الذي سيحدث: فأنجاه الله من النار فآمنوا جميعًا، ألستم أعددتم النار وظللتم أكثر من شهر توقودن نارًا؟ -وفي الآثار الإسرائيلية: كان الطير يمر من فوقها يسقط مشويًا، كان يحترق من شدة النار العظيمة-، فأنت متخيل عندما يدخل النار؟! وقيل أيضًا -ورد عن بعض السلف-: ما أحرقت إلا وِثاقه، أي ربطوه بالحبل ووضعوه على المنجنيق لأنها نار عظيمة لا يستطيعون أن يقتربوا منها أصلًا، فوضعوه في المنجنيق ليلقوه في الهواء وقال في الهواء: "حسبي الله ونعم الوكيل" فسقط في النار، المتَصَوَّر أنه يتفحم، فلما يخرج على قدميه الطبيعي والمنطقي أن يقولوا ماذا؟ آمنا برب إبراهيم، بل في بعض الإسرائيليات قال له أبوه أو عمه -أيًّا كان- أو أمه -كل هذا إسرائيليات-: "نِعمَ الرب ربك يا إبراهيم" لكن عامة سنكفر أيضًا! أنا سعيد جدًا من دينك، لكن أكثر من هذا فلا!

﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾[العنكبوت ٢٤]، مع قصة نوح جاءت "الآية" ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[العنكبوت ١٥]، أما هنا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[العنكبوت ٢٤]، أهل الايمان هم من يستفيدون من هذا.

❖ الحقيقة وراء عبادة الأوثان:

ولكن حتى وبالرغم من ذلك، بالرغم مما تعرض له إبراهيم، بالرغم من التوضيح ويؤذى ويُربط ويوضع على المنجنيق ويُلقى في النار، كل ذلك لم يصدَّه عن نشر هذا الدين؛ فخرج إبراهيم من النار، خرج من النار ويقول ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم﴾[العنكبوت ٢٥]، أما زلت تتحدث؟!

هل أنت متخيل أنه للتو خارج من النار وما زال يدعوهم؟! وهنا لا يقول نفس الكلام، فهو لما ذكر الأوثان في المرة الأولى قال لهم ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾[العنكبوت ١٧]أوثانًا فقط، أما هنا سيدنا إبراهيم يكرر نفس الكلام مع زيادة في التوضيح، كأنه خارج من النار يقول أنا نسيت أن أقول لكم شيئًا ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾[العنكبوت ٢٥] أنا سأقول لكم القصة، هذه الأوثان كلها ترابط ﴿مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾. هذه علاقات ومصالح نشأت وأنتم خائفون من هدمها لأجل مصالحكم، وهذه المودة ستنقطع حتمًا شئتم أم أبيتم في الدار الآخرة ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم

بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ التي أردتم أن تحرقوني بها سيقذفكم الله في النار الحقيقية، ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ هذا شرح سريع للآية.

أما الشرح التفصيلي:

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، كلمة "مودة" إعرابًا فيها تفاصيل كثيرة صراحةً، اللغويين أو الذين أعربوا القرآن اختلفوا؛ لأن هناك قراءة ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنَكُمْ﴾، وقراءة ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ هذه التي نقرأ بها، وهناك ﴿مَّوَدَّةُ بَيْنِكُمْ﴾. إذًا هناك بالرفع و بالنصب، والنصب منون وغير منون، وبعضهم قال غالب هذا الاختلاف يدور على إعراب "ما" في ﴿إِنَّمَا﴾هل هي "موصولة" أم "مصدرية" أم "كافة"؟

الذي يريد أن يرجع لتفصيلها فأكثر شخص استفاض في شرح هذه الآية: السمين الحلبي في تفسير "الدر المصون"، أو من المعاصرين فهناك كتاب بسيط من يريد أن يعرف إعراب أي آية بصورة مبسطة وبلغة المعاصرين فعليه بـ "إعراب القرآن" لمحيي الدين درويش، فشرحها شرحًا مبسطًا ثم أفردها بكلام كثير لأنها آية محورية؛ لأنها مهمة في توجيه كل قراءة.

لكن الخلاصة أن مودة هنا على قراءتنا التي بالنصب ممكن يأتي إعرابها مفعول لأجله، أي أنهم فعلوا هذا لِأجل المودة، كما نقول: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[8]، أي نحن نعمل لنرضي الله، هذا يسمى مفعولًا لأجله، فالمفعول التي هي الأوثان، فهم مَنْ فعلوها، لِمَ؟ لكي تحافظ على العلاقات، لماذا أيضًا؟ قلت لكم في أول الدرس قضية الأوثان ونشأتها، أي مجتمع كما قلنا يُخضَع بالقوة وبالدين، ومع طول الفترات الناس تثور على القوة فيحتاج سلطانًا آخر بيده فيجمع الاثنين، وهذا السلطان الآخر لا بد أن يكون غيبيًا.

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في قصة أصحاب الأخدود (كان فيمن كان قبلكم ملك)[9] أي ظالم (وكان له ساحر) هو يجمع بين الاثنين: مُلْك وسِحر، شيء غيبي لا يستطيعون أن يمسكون به ويخافون

[8] ذكرت هذه الآية في [البقرة ٢٠٧]، [البقرة ٢٦٥] و[النساء ١١٤].

[9] [عن صهيب بن سنان الرومي]: كَانَ مَلِكٌ فِيمَن كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ له سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ، قالَ لِلْمَلِكِ: إنِّي قدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكانَ في طَرِيقِهِ، إذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فأعْجَبَهُ فَكانَ إذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذلكَ إلى الرَّاهِبِ، فَقالَ: إذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وإذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبيْنَما هو كَذلكَ إذْ أَتَى علَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقالَ: اليومَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فأخَذَ

منه مع السلطان، (قال له إني قد كبرت) الساحر قال له موضوع الغيب بدأ يقل عندنا، نريد كوادر جديدة (ابعث لي غلامًا أعلّمه السحر) لأنه يريد أن يحافظ على الاثنين معًا.

فاستعمال هذين الأمرين:

القوة –السلطان– والدين يُخضِع الشعوب، فلكي يجمع الناس، أي مجموعة، أي طائفة، دولة، قبيلة، عشيرة، لا بد من مركز يلتفون حوله يجمعهم؛ لأنه من الممكن أن يفعل كل شخص ما يريد، ممكن هذا يمشي وهذا يتشاجر..إلخ، فكيف سنسيطر على الناس؟ ليس بالقوة وحسب، السلطان قوة لكنه غير كافي، لا بد من أفكار يُعظّمها الناس ويخضعوا لها ويحيّونها ويقوموا بها؛ لكي يخضع لها الجميع وتصبح المركز.

الإسلام وضع المركز وهو: العقيدة في الله، الكل يُقدسه والكل يخضع له هو كلام الله، الكعبة التي وضعها الله نحن نطوف جميعًا حولها، فيوجد مركز وضعه الإسلام، هذا المركز إذا رُفِع هم لا بد أن يضعوا أي شيء آخر لأنه لو رُفِع –المركز– سنتفرق، فنريد شيئًا يُحافظ على الروابط التي بيننا. لذلك علماء

حَجَرًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِن أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هذِهِ الدَّابَّةَ، حتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فأتَى الرَّاهِبَ فأخْبَرَهُ، فَقالَ له الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ اليومَ أَفْضَلُ مِنِّي، قدْ بَلَغَ مِن أَمْرِكَ ما أَرَى، وإنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فلا تَدُلَّ عَلَيَّ، وَكانَ الغُلَامُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِن سَائِرِ الأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كانَ قدْ عَمِيَ، فأتَاهُ بهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقالَ: ما هَاهُنَا لكَ أَجْمَعُ، إنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقالَ: إنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا إنَّما يَشْفِي اللَّهُ، فإنْ أَنْتَ آمَنْتَ باللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فآمَنَ باللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ، فأتَى المَلِكَ فَجَلَسَ إلَيْهِ كما كانَ يَجْلِسُ، فَقالَ له المَلِكُ: مَن رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قالَ: رَبِّي، قالَ: وَلَكَ رَبٌّ غيْرِي؟ قالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فأخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حتَّى دَلَّ علَى الغُلَامِ، فَجِيءَ بالغُلَامِ، فَقالَ له المَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قدْ بَلَغَ مِن سِحْرِكَ ما تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فَقالَ: إنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا، إنَّما يَشْفِي اللَّهُ، فأخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حتَّى دَلَّ علَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بالرَّاهِبِ، فَقِيلَ له: ارْجِعْ عن دِينِكَ، فأبَى، فَدَعَا بالمِئْشَارِ، فَوَضَعَ المِئْشَارَ في مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بجَلِيسِ المَلِكِ فَقِيلَ له: ارْجِعْ عن دِينِكَ، فأبَى فَوَضَعَ المِئْشَارَ في مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ به حتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بالغُلَامِ فَقِيلَ له ارْجِعْ عن دِينِكَ، فأبَى فَدَفَعَهُ إلى نَفَرٍ مِن أَصْحَابِهِ، فَقالَ: اذْهَبُوا به إلى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا به الجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فإنْ رَجَعَ عن دِينِهِ، وإلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا به فَصَعِدُوا به الجَبَلَ، فَقالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بما شِئْتَ، فَرَجَفَ بهِمِ الجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إلى المَلِكِ، فَقالَ له المَلِكُ: ما فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ، فَدَفَعَهُ إلى نَفَرٍ مِن أَصْحَابِهِ، فَقالَ: اذْهَبُوا به فَاحْمِلُوهُ في قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا به البَحْرَ، فإنْ رَجَعَ عن دِينِهِ وإلَّا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا به، فَقالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بما شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بهِمِ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إلى المَلِكِ، فَقالَ له المَلِكُ: ما فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ، فَقالَ لِلْمَلِكِ: إنَّكَ لَسْتَ بقَاتِلِي حتَّى تَفْعَلَ ما آمُرُكَ به، قالَ: وَما هُوَ؟ قالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ في صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي علَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِن كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ في كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: باسْمِ اللَّهِ رَبِّ الغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فإنَّكَ إذَا فَعَلْتَ ذلكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ في صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ علَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِن كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ في كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قالَ: باسْمِ اللَّهِ، رَبِّ الغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ في صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ في صُدْغِهِ في مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الغُلَامِ، فَأُتِيَ المَلِكُ فَقِيلَ له: أَرَأَيْتَ ما كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بكَ حَذَرُكَ، قدْ آمَنَ النَّاسُ، فأمَرَ بالأُخْدُودِ في أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقالَ: مَن لَمْ يَرْجِعْ عن دِينِهِ فأحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ له: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ ومعهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقالَ لَهَا الغُلَامُ: يا أُمَّهْ، اصْبِرِي فإنَّكِ علَى الحَقِّ.

مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٣٠٠٥ • [صحيح] •

التاريخ يقولون مثلًا كان هناك روابط القبيلة، وروابط الأسرة، وروابط الدولة، أو ممكن رابطة الملك، الملك هذا إمبراطور يُظَن أنه تتنزل فيه روح الإله فيجمع بين الأمرين، مثل فرعون، سُلطان القوة وسُلطان الدين.

فالشاهد أنهم يبحثون عن أي مركز يربط الناس ببعضها، كما يحدث الآن في الدول، حتى الدول غير المسلمة وليس عندها دين، كيف أن دولة لها حدود مختلفة تعمل رابطًا بين كل أفراد الدولة؟ مثلًا حين تذهب لأي دولة مثل ألمانيا وبجوارها دولة أخرى، افترض مثلًا ألمانيا وفرنسا دولتين كبار، كيف يكون كل هذا الشعب مترابط وفيه روابط بينه؟ وكل الشعب الآخر مترابط، لا بد أن يجعل لهم مركزًا، فيخترع له فكرة الوطنية، يخترع فكرة معينة تجمعهم. الأصل أن الدين هو الذي يجمع الناس، حسنًا نحن نحينا الدين فلا بد أن يخترعوا فكرة بديلة، الفكرة البديلة ما دورها؟ دورها أنها تحافظ على المودة وعلى الروابط.

حين تقرأ الكتب التي قلت لكم عنها في مسألة الوضع الجاهلي قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وكيف أن قريشًا بالرغم من أنها بطون مختلفة كيف استطاعوا أن يُسيطروا ويُحكموا القبضة على مكة، ويقسموا التفاصيل بينهم، فكانت بينهم مودة إجباريًا. وكما قلت لكم أن فرعون يقول ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾[الشعراء ٥٦] يوجد مصالح متداخلة، كان هذا بينهم إجباريًا. أما المدينة فلم تكن هكذا، المدينة كانت مُتناحِرة وشجارات كثيرة، ويفوزون على اليهود، ويعودون ويتشاجروا مرة أخرى..، هذا الذي جعل دخول الإسلام في المدينة أسهل، أن الوضع كان متخلخلًا والكبار ماتوا...

بالتأكيد كل شيء بقدر الله لكن بالأسباب الأرضية لماذا انتشر الإسلام في المدينة أسهل من مكة؟ توجد أسباب، توجد أقدار، وهذا مهم أن يفهمه الإنسان حتى سياسيًا؛ أن المدينة كانت أسهل حتى على مستوى الدين، لم ينتشر هذا في الحبشة وانتشر في المدينة. اليهود أصلًا طائفة مغلقة، نَسَق مغلق ترفض أن يدخل أحد إليها، فحتى الدين الذي كان موجودًا هم يكرهونه وممنوع أن يدخل فيه أي أحد بسهولة، والعرب الموجودون أغلب الكبار ماتوا في الحروب، والشباب الصغار مُتناحرون وغير قادرين على أن يُحكِمُوا القبضة على المدينة ومختلفين. هذا غير مكة، مكة كانت متناسقة، كل الأمور مرتبة، كل وظيفة مقسمة، بكبارها في أماكنها وهناك حلف موجود، وهناك برلمان، كل الأمور جاهزة، فلما يأتي أي أحد يريد أن يكسر كل هذه المودة يرفضون.

فسيدنا إبراهيم يقول لهم –وهذا إسقاطه أيضًا على واقع مكة– أن كل هذه الروابط أنتم فعلتموها مودة في الحياة الدنيا، هذه مودة ليست حقيقية، ليس الرابط بينكم هو الله، **وكل مودةٍ ليست على حب الله تُقْطع في الدار الآخرة وتكونون أعداء** ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت ٢٥]. قد تظل الروابط مستمرة إلى أن يموتوا؟ نعم تظل، ليس بالضروري أن يتشاجروا معًا ويتركون بعضهم لأنهم مجتمعين على باطل، لا، فمن الممكن أن يظلوا هكذا إلى أن يموتوا.

متى ستُفَك هذه الروابط؟ كما جاء في آيات كثيرة في القرآن ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾[سبأ ٣١] آيات كثيرة ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[البقرة ١٦٦]، آيات كثيرة تشير إلى أن هناك روابطًا لن تُفَك إلا يوم القيامة.

فسيدنا إبراهيم هنا يقول ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾[العنكبوت ٢٥]، هذه المودة في الحياة الدنيا فقط ثم تنقطع ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ التي أردتم أن تقذفوني فيها. ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ لن تنفعكم هذه العلاقات، لن تنفعكم هذه الأواصر، كما يقول الزمخشري: يخترعون مذهبًا معينًا يجتمعون عليه، يبحثون عن أي شيء يجمعهم، هذا لن ينفعكم ولن ينصركم، والله سبحانه وتعالى هو خير الناصرين.

أكتفي بهذا القدر، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.